لطفي السيّد الإنسان

عفاف لطفي السيّد

ولد احمد لطفي السيد قبل واحد وتسعين عاما في قرية برقين في اقليم الدقهلية . وقد اراده ابوه ، وكان عمدة ميسور الحال ، ان يصبح شيخا ازهريا ، فارسله وهو بعد في الرابعة الى الكتّاب ليدرس القرآن على الشيخة فاطمة . وما ان بلغ العاشرة حتى كان قد حفظ القرآن عن غيب ، فكافأه والده بأن اهداه حصانا — وظلّ لطفي يحب الخيل طيلة حياته . وذات يوم جاء ادهم باشا مدير الدقهلية السابق ، لزيارة والد لطفي ، وأتي بلطفي ليستقبل الضيف الشهير ، واعجب ادهم باشا بذكائه ونصح والده ان يرسله الى مدارس الحكومة بدل الازهر . وهكذا التحق لطفي بالمدرسة الابتدائية في المنصورة ، ثم بالمدرسة الخديوية الثانوية في القاهرة .

واذ كان خجولا ، وخاصة للفرق بين لهجته القروية ولهجة ابناء المدينة ، فانه صرف معظم وقته في المطالعة . واحب الشعر وحفظ الكثير منه ، واعجب ببديع اللغة العربية وبيانها ، مما حمله على ان يكوّن لنفسه اسلوبا نثريا جليا خاصاً به . وقابل لطفي في المدرسة الخديوية الرجل الذي اصبح اقرب اصدقائه اليه ، عبد العزيز فهمي ، وقامت بينهما صداقة استمرت طيلة حياتيهما . ودخل الاثنان معاً مدرسة الحقوق في العام ١٨٨٩ ، وتعرفا هناك على آخرين اصبحوا اصدقاء وزملاء لهما فيا بعد ، امثال عبد الخالق ثروت واسماعيل صدقي واحمد عبد الغفار .

وفي مدرسة الحقوق قابل لطفي ايضاً الشيخ محمد عبده ، وكان واحدا من ممتحنيه واصبح ناصحه وصديقه . وقد لفت لطفي انتباه الشيخ في اجابته الخطية على احد اسئلة الامتحان عن حقّ الحكومة في معاقبة المجرم . فقد كتب لطفي ان لا حق للحكومة في ان تعاقب المجرمين لان الحكومات انما اسست على القوة وليس على التعاقد ، والقوة لا

تمنح حقا . ولما اخبر لطفي اصحابه بمضمون اجابته على السؤال تنبأ له عبد الغفار بالسقوط وحذره من العاقبة السيئة لتفلسفه ولكنه اخطأ : فقد ابلغ الشيخ محمد عبده لطفي في الامتحان الشفهي انه نال اعلى درجة ، ليس ، كما قال، بسبب ثورته على الحكومة ولكن لجودة اسلوبه النثري . وقد شجعت هذه الملاحظة لطفي على ان يختار لنفسه مستقبلا صحافيا ، وكانت الصحافة قد استهوته منذ ان كان يترجم البرقيات « للمؤيد » . فاسس بالاشتراك مع صدقي وثروت وعبد الغفار « مجلة التشريع » المدرسية . وتعرّف ، بواسطة عمله الصحفي ، على اعظم صحافيي ذلك العهد . وكان من اغلى ذكرياته طلب عبدالله النديم منه ان يصحح له طبعات مجلة « الاستاذ » .

ذهب لطفي ، في سنته الثانية في الحقوق ، الى اسطنبول . وهناك قابل سعد زغلول الذي اخذه لمقابلة جمال الدين الافغاني . وتأثر الشاب بالافغاني ورجا سعدا ان يسمح له بزيارته كل يوم من ايام اقامته في اسطنبول . وسمح له ، وصرف لطفي ساعات عديدة سعيدة ومثمرة مع الرجل الكبير . وروى ، فيما بعد ، ان الافغاني علّمه ان بامكان الانسان ان يربي نفسه ان هو تعلم فحسب ان يحصي على نفسه كل كلمة يقولها وكل عمل يعمله ، لان تلك هي تربية الذات .

تخرّج لطفي من مدرسة الحقوق في السنة التالية ، وعين وكيل نيابة في المنيا . واذ كان صديقه عبد العزيز فهمي هناك اسس الاثنان معاً ، ومع بعض اصدقائهما ، جمعية سرية هدفها تحرير مصر من الاحتلال . وكم كانت دهشة لطفي عظيمة لما اتصل به مصطفى كامل يوماً وعرض عليه ان ينضم الى جمعية سرية يرئسها الخديوي عباس ولها اهداف جمعيته ذاتها . وكانت تلك الجمعية نواة الحزب الوطني . ولمدة سنة انتمى لطفي الى الحزب ولكنه اختلف مع كامل والخديوي وانسحب . وكان في خلال عضويته للجمعية قد ذهب الى سويسرة ليحصل على الجنسية السويسرية حتى يستطيع ان يبدأ حملة صحافية ضد الاحتلال تحت حماية الامتيازات الاجنبية . وقابل الشيخ عبده بالصدفة في اثناء اقامته بجنيف ، وذهبا معاً الى محاضرات الجامعة ، حيث كان عبده يجذب الانظار بلحيته المرسلة وبجبته وعمامته . وقامت بين الرجلين روابط وثيقة ، قوّاها (لاشعوريا) شبه الشيخ لاب احمد لطفي (السيد باشا ابو علي) شبهاً قوياً وغريباً لدرجة ان مكتبة لطفي في هليوبوليس

تحمل صورة كنت اظن دائما انها للشيخ محمد عبده الى ان علمت متأخرة انها في الواقع صورة جدّي .

استأنف لطفي عمله الحكومي السابق اثر عودته الى مصر . ولكنه كلما كان يرتفع في الدرجات الحكومية كان احتكاكه بالمسؤولين الانكليز يزداد ، ويزداد بالتالي اطلاعه على القيود التي كان الانكليز يفرضونها على الموظفين المصريين . شعر ان امكانات المصريين كانت تُخمد وتُعطّل . ولذلك ، وبسبب خلافه مع المدعي العام ، استقال في ١٩٠٥ ، ونوى ان ينزوي في قريته وان يصرف حياته في الزراعة (وقد تأثر بتولستوي والروايات التي قرأها له) ، الا ان عبد العزيز فهمي ، الذي استقال ايضاً من عمله الحكومي وعمل محاميا ، بدّل له فكره واغراه على ان يشاركه عمله . فعمل الاثنان معا ما ينيف على السنة ، وكان الدفاع عن المتهمين في دنشواي اشهر قضية ترافع لطفي بها في تلك الفترة . وقد قرر بعد ان انتهت المحاكمة ان يعود الى حبه الاول ، الصحافة . وفي العاشر من آذار (مارس) ١٩٠٧ صدر العدد الاول من « الجريدة » وكان لطفي يرئس تحريرها .

حملت صفحات الجريدة آراء لطفي في الانسان والسياسة والتعليم والسلوك البشري . وكان هدفها الرئيسي خلق وعي سياسي ناضج في مصر ، وعي آمن لطفي انه لا بد ان يؤدي الى تحرر سياسي من الحكم البريطاني ومن الاستبداد الخديوي . ولما كان لطفي تلميذا للشيخ محمد عبده، فقد شدد على اهمية المجتمع المصلَح اجتماعيا : فالاصلاح الاجتماعي هو السبيل الوحيد للاصلاح السياسي ، ولا واسطة اليه الا بالتعليم . وقد قال في خطاب له في ١٩٠٨ : « فان اردتم الاستقلال فحولوا السنتكم واقلامكم وشيئا من قواكم وقليلا من اموالكم الى التربية والتعليم العام فانه السبب الوحيد للاستقلال ولا شيء غيره » .

كان المجتمع المصري ينقصه الشيء الكثير . وكانت الهوة تنمو وتتسع بين التربية الجديدة الغربية النظام وبين التعليم الازهري التقليدي ، هوة هددت بالفتن والتناحر . وكانت غالبية الشعب امية تماما ، ولم تفعل الحكومة شيئا لتحسين الاوضاع . وعندما كان الوطنيون يطالبون بتأسيس مدارس جديدة كان كرومر يجيب ان الكتّاب هي جلّ ما تستطيع الحكومة تمويله ، واذا كان المصريون يريدون كثيرا من الثقافة فعليهم ان يدفعوا ثمنها . وكانت النتيجة ان تحولت مصر الى مجتمع منقسم على نفسه : مجتمع ليس بين عناصره

المختلفة روابط عامة ، بل يحتقر كل منها الآخر ويسيء الظن به . وازدادت الجرائم كظاهرة على هذا الانحلال . فان عرى الثقة بين الحاكم والمحكوم انحلت بفعل سني الاضطهاد والاحتلال الاجنبي ، حتى كان الشعب يسيء فهم القوانين التي تسنها الحكومة ، ويخرقها ، وكان الموظفون الصغار الذين قصد منهم ان يكونوا جسراً بين القوانين والشعب قد فقدوا الصلة مع الفلاح رغما عنهم بسبب ثقافتهم الغربية . رأى لطفي ان حل هذه المسألة هو في خلق ضمير جماعي يوحد المصريين في وعي عام لوحدتهم كشعب وكمجتمع له اهدافه الواحدة ومصالحه المشتركة . ورأى ان هذا هو السبيل لاصلاح الصفات القوميـة لتكوّن مجتمعاً حرّاً ذا كرامة . « يجب علينا ان نروّض انفسنا من اليوم على الاخلاق الدستورية » . وهو مجتمع يعرف كل انسان فيه حقوقه وواجباته ، ولا يتهرب من مسؤولياته بكلمة « ما عليش » التي كانت ، عند لطفي ، شراً محرما .

التعليم هو الخطوة الاولى نحو الاصلاح . ولكي يصبح في مصر نخبة مثقفة فانها تحتاج اولا الى جامعة . كان مشروع الجامعة امنية عزيزة على قلوب الوطنيين ، ومع انهم اختلفوا على الوسائل السياسية لتحرير مصر فانهم اتفقوا على الحاجة للجامعة . قال لطفي : « اقول ان حركة الجامعة ونهضتها من اشرف ما وجد في هذا البلد من النهضات ، بل هي اكبر فائدة واعظمها ضماناً للتقدم الحيوي المطلوب » . فان الجامعة تخرج رجـالا مفكرين ، ذوي قوى ابداعية وذوي معرفة ، بدل « فابريكة الموظفين » الذين يخرجهم لنا ذلك النوع من التعليم .

غير ان التعليم لم يكن كل ما تحتاجه مصر . كتب لطفي في مقـال بعنوان « الحالة الحاضرة » : « ليس كل ما يلزم لترقي حالتنا الاجتماعية هو التعليم واصلاحه ، بل هناك امران آخران لا يصح اغفالها . اولها : العلاقات العائلية التي يجب على الكتّاب ان يصلحوها بكل ما لديهم من اساليب الانتقاد . والثاني: هو الفضائل العامة التي يدخل انماؤها والحث عليها في واجباتهم ايضاً ؛ وهي العدل والكرم وحسن العشرة والشجاعة » .

وقد عنى بعث المجتمع هذا رفع مستوى المرأة ، اذ آمن لطفي ان لا اصلاح للمجتمع ما دام نصفه جاهلا . وآمن مثل صديقه قاسم امين بضرورة تعليم المرأة . وحينما عـين مديراً لجامعة القاهرة فتح ابوابها امام النساء . ولما كان بعد شاباً اقنع والده بأن يرسل بناته الى المدرسة .

كان اصلاح اللغة العربية من السبل التي سلكها لطفي لخلق الوعي القومي . فقد اعتقد ان العربية التي لم تتبدل منذ ايام العباسيين لا تستطيع ان تنقل آراء وافكارا جديدة للشعب ، لان الشعب لا يفهم المصطلحات الحديثة . لهذا اصبح لطفي مبتدعاً لغويا ، وابتكر اسلوبا جديداً متطوراً قادراً على التعبير عن الافكار السياسية والاجتماعية الحديثة . وكان هذا العمل احد خدماته الكبرى كمصلح اجتماعي ، من حيث انه اغنى اللغة العربية وجعلها اداة مطواعة للاستعمال الجاري في نطاق فهم الرجل العادي .

واتجهت حملات لطفي السياسية في « الجريدة » في مجريين مهمين : اولهما في طلب الاستقلال التام ، فاتهمه الشيخ علي يوسف بالخيانة ، وخشي لطفي على نفسه من الاعتقال. وثانيهما في طلب دستور من الخديوي ، حتى اصبحت صرخة « الدستور يا افندينا » شعاراً للحركة الوطنية . الا ان لطفي كان في الحقيقة اكثر اهتماماً من ذلك كله بزرع بذور حب الفضيلة في المصريين ، اذ كان فيلسوفاً ومصلحا اجتماعيا اكثر منه سياسيا . كانت له تصورات عن المجتمع المثالي الذي شعر ان المستقبل سيحققه ، ولا بد أن مطالعاته في الفكر السياسي في الغرب حفزت هذه التصورات . الا انها كانت متأثرة اكثر بمطالعاته لارسطو . سيكون مجتمع المستقبل نتيجة نهائية لعملية الاصلاح والتعليم حينما ينتصر « الرجل الطيب » . وتحت عنوان « الرجل الطيب » كتب : « ولست الا شديد الوثوق بان الطيب يغلب الخبيث ، وتصل الانسانية الى كمالها الوجودي الممكن ، فيكون غالب الناس هو ذاك الرجل الطيب الذي لا تزدهيه القوة ولا يحمده الضعيف ... انما النفس الانسانية طاهرة باصلها ، فلا يتكلف الذي يريد ان يكون رجلا طيبا الا ان يحاسب نفسه على الشر ، ويلفتها الى فعل الخير » .

والى جانب نشاطه كرئيس لتحرير « الجريدة » وكعضو في حزب الامة (وهو اول حزب سياسي في مصر ، تأسس ١٩٠٨) ثم كرئيس لذلك الحزب ، كان لطفي على اتصال وثيق بسعد زغلول وبالوفد . كان واحداً من مؤسسي الوفد الخمسة ، وكان في الحقيقة مفكرهم النظري ، وذهب مع سعد الى مؤتمر الصلح في باريس . ولكن لطفي وجد متعته الحقيقية في وظيفته كمدير لجامعة القاهرة . ففي ذلك العمل كان يستطيع ان يمارس الحياة

الفكرية والتأملية التي احب ، كما كان يستطيع ان يوجه جيلا جديداً كاملا نحو الاهداف الصحيحة . عمله هذا هو الذي اكسبه اللقب الحنون « استاذ الجيل » . ومع ان لطفي استلم الوزارة ثلاث مرات ، الا انه كان في كل منها يعود الى الجامعة بسرعة وارتياح ، لان الجامعة عنت له « الاخلاص للعلم والتضحية في خدمته ، والاستقلال في الرأي والفكر والعمل » . وبسبب توكيده على قيمة استقلال الجامعة عن الحياة السياسية استقال من وظيفته في ١٩٣٢ ، حينما فصلت وزارة المعارف الدكتور طه حسين من وظيفته كعميد لكلية الآداب واعطته وظيفة اخرى دون ان تستشير مدير الجامعة . فقد اعتبر لطفي ذلك الاجراء اعتداء على تقاليد الجامعة واستقال احتجاجا . وقد عاد الى المنصب نفسه في ١٩٤١ .

ولما تخلى لطفي عن الحياة العملية وتقاعد من تلقاء ذاته تابع تكريس نفسه لمؤسستي الجمعية الخيرية الاسلامية والمجمع اللغوي . وقد ظل رئيسا لكل منهما حتى وفاته .

تلك هي الصورة العامة لاستاذ الجيل : رجل له كل الصفات التي وصف الرجل الطيب بها ، صفات العدل والكرم وحسن العشرة والشجاعة . ولعلي استطيع ان اقدم صورة اخرى له ، الصورة الخاصة التي ترتسم في ذهني له ، ليس كمربّ وباحث فحسب بل ايضاً كعمّ حنون مرح : واقدم ذكرياتي عنه مداعبته لي بقوله اني لست ابنة امي لانها بيضاء البشرة وانا سمراء ، واني في الاصل « برنسيس حبشية » خطفت وبيعت فاشتراها والداي. لا اذكر رد فعل تلك القصة عندي ، ولكن لا بد انها اطربت كلا منا : فان « برنسيس الحبشة » اصبح الاسم المحبب لي عنده . وعلى خلاف معظم الرجال الذين يتحدثون الى الصغار بعدم اكتراث لم يكن هو يفعل ذلك قط ، بل كان يتحدث دائما الى الصغار كأنهم مبعث اهتمام عنده . وقد كانوا كذلك في الواقع : كان يبادرني ، في كل زيارة نقوم بها له بقوله : « احكي يا ستي » ، وكان علي ان افكر بسرعة بشيء اقوله ، شيء يحمله على رواية احدى اقاصيصه التي كانت تتنوع بين جحا وارسطو . وكان هذا هو شعور كل الاطفال نحوه . وكم كان يلذّ لي سماع ابن اخي ، الطفل في الخامسة ، يقول بجدّ انه سيزور «جده الباشا» : لقد عرفنا ، منذ ان كنا صغاراً ان «عمو لطفي» كان رجلا شهيرا ،

ولكننا بلا مبالاة الاطفال هزئنا بالاسماء الطريفة لكتبه ، وخاصة « نصائح ارسطوتليس لابنه نيخوماخوس » . فقط عندما التحقت بالجامعة وجاهدت في فهم ذلك الكتاب نفسه نما فيّ الاهتمام بعمي كشخص مستقل وليس كمجرد عم ّ .

كان تفاؤله يدهشني . كنت وصديقة لي نحدثه مرة في حدائق النزهة بالاسكندرية ، واذ كنا في السن ّ الذي يحاول المرء فيه ان يتهكم ويلذع قالت صديقتي ان الجيل الجديد جاهل وان الجيل القديم كان اكثر اثارة من الجيل الحاضر الراكد . ولكنها قاطعها قائلا : ان المستقبل افضل دائماً ، فان الحياة تطور وسير مستمر نحو الاحسن ، وكل جيل خير من الذي سبقه واكثر معرفة ، فان الماضي لم يكن قط ما اراد الناس ، وانما المستقبل هو الذي يحفل بالآمال والامجاد . والذين هم في سن الشباب معتادون على سماع تحسرات الشيوخ على « ايام العز الماضية » ، ولذلك كان هذا التفاؤل في رجل كبير وحكيم مثله مدهشاً لي ، ولكني لم انسه قط . وربما كان اهتمامه بالشباب ناتجاً عن هذا الاعتقاد بان المجتمع المثالي الذي حلم به وعمل له انما سيتحقق على ايدي الاجيال القادمة .

صاحب تفاؤله ايمان بسلطة العقل . لم يكن لطفي في يوم من الايام زعيماً شعبياً ، لانه كان يخاطب العقول ولم يخاطب العواطف كما كان مصطفى كامل يفعل . ولكنه لم يكن بامكانه ان يفعل غير ذلك ، لان الدولة المثالية في تخيلاته كانت تلك التي يسيطر العقل عليها . وطبيعي ان يؤمن المفكر بنظرية كهذه ، ولكن الى جانب مواهبه الفكرية كانت لديه مقدرة خارقة على الابتعاد بنفسه عما حوله ، مما سهل عليه رؤية الاشياء بموضوعية اكثر من سائر الناس . وقد ظهرت هذه المقدرة مرة في ظروف غريبة : قبل خمس عشرة سنة كان عليه ان يجري عملية خطيرة ، ولم يستطع الجراح ان يخدره تماماً لكبر سنه ، ولذلك كان عليه ان يقاسي ألماً كبيراً . غير ان الجراح (وكان امريكيا) جاء والدي بعد العملية وعلى وجهه معالم العجب : لقد لاحظ خلال العملية ان لطفي لا يبالي بالالم ! واستعلم الجراح عن ذلك ، واخبر ان لطفي كان يفكر باشياء اخرى ولذلك لم يشعر بالالم : لقد ابتعد بنفسه كلياً عما حوله فلم ينل الالم منه .

وكان الكرم من اعظم فضائل لطفي . لما انعمت عليه الدولة بجائزة (عدة آلاف من الجنيهات) وبوسام مذهب ، انهمرت عليه رسائل طلب الاحسان . فاعطى الحوالة بالمبلغ وتلك الرسائل الى ابنه وطلب منه ان يقسم المبلغ على اكثر الطالبين احتياجاً ،وكان

التكريم الذي ناله من الدولة هو الجائزة التي اعتز بها . ولكن كرمه لم يكن مادياًفحسب، بل كان كرماً في العقل والقلب ايضاً .وهناك صحافيون صغار ومبتدئون كثيرون يتذكرون الاستقبال الودي الذي كان هذا الرجل المسن والعاجز يلقاهم به والمساعدة التي كان يقدمها لهم ، مع انه كان يرفض اجراء المقابلات مع الصحافيين الكبار . ويمكنني ان استمر واقدم امثلة لا تحصى على فضائله، غير انه ما كان ليحب ذلك . فقد كان رجلا متواضعاً بالفعل ، والتواضع من صفات العظماء الاصيلة . وقد اقترحت منذ سنوات ان اكتب رسالتي للدكتوراه عنه ، ولكنه رفض الاقتراح قائلا انه ليس مهما كفاية ، وانني قد لا اكون موضوعية في بحثي عنه بسبب عاطفتي نحوه ، مما يهدد البحث بان يخسر الصفة العلمية المطلوبة .

عدت الى مصر في الصيف الماضي لقضاء العطلة . وكنت اذهب الى الاسكندرية كل اسبوع لرؤيته . وكان هو ، بقامته النحيفة وعباءته فوق ثيابه وسبحته بين اصابعه الطويلة ، يجلس صباح كل يوم في قرنته المنزوية في فندق بوريفاج محاطاً باصدقائه . وكان حديثهم جدياً احياناً وهزلياً احياناً اخرى ، ولكنه كان ممتعا دائما وأخاذاً في معظم الاحيان . قد يتناول فروسية العرب ، او تعقد بيت شعر ، او قصيدة جديدة ، او زجلا قديما ، او ذكريات من الماضي . وكانت هذه الذكريات اكثر ما يثير اهتمامي ، بحكم درسي لتاريخ مصر في القرن الماضي . وما كنت اثير قضية حتى يتكلم ويتكلم حتى لا يلفظ نفَسه، فيعبس ويداعب اصابعي بسبحته ويقول : « انت تعبتيني » . ولكنه،وبعد دقيقة فقط ، يتابع ذكرياته ، وبين حين وآخر يقاطعه احد اصدقائه مضيفا الى كلامه جملة عابرة ، ثم يستأنف الجميع المناقشة .

لم يكن لطفي عبقريا ولا فيلسوفا عظيما . بل لم يكن مبتدعا . ولكنه كان رجلا عظيما في انسانيته ، وفي ادراكه جوهر المشكلة ، وفي موهبته ككاتب ومربٍّ . لقد اسهم في نقل فلسفة اليونان ومعارف الغرب الى مصر ، وحاول ان يكشف عن عوامل ارتقاء المجتمعات وانخفاضها ليعثر لمصر على عوامل انبعاثها . وجعل من الصحافة مهنة محترمة واداة للاصلاح الاجتماعي . والهم الذين اتصلوا به الولاء والحنان . لقد اعطى مصر الكثير ، وكافأته مصر احتراما وتوقيراً .